فالاشتراكية بقولها انها توفير العمل اولاً ثم توفير المنفعة على قدر العمل قد اخذت هذا المبدأ عن اساس راهن هو نظام الحي نفسهِ والعلم بنظام الاجتماع على هذه الصورة يجعل القيام بالواجب من قبيل نيل الحق فلا يغفل الكبير حق الصغير ولا يتوانى الصغير عن حق الكبير والاَّ لحق الضرر بالاثنين على حدٍّ سوى وساء حال الاجتماع عموماً . بل العلم بذلك من هذا السبيل يسهل القيام بالعمل المفروض منهُ عن مبادىء قويمة مكينة وهذا ما حملني على القول بان الاشتراكية لا تنتشر في نظام الاجتماع الاَّ اذا انتشرت مبادئ العلوم الطبيعية نفسها وهكذا كما قلت واقول تصبح الاشتراكية لا مذهباً من المذاهب او تعليماً من التعاليم مقحماً في نظام الاجتماع كما كانت تبدو في تعاليم النظريين بعيدة المنال بل نتيجة لازمة للعلم الطبيعي نفسهِ ولا يتم ذلك كما ينبغي الاَّ اذا انتشر العلم الطبيعي انتشار العلوم النظرية في الماضي وتدرَّبت الطبائع عليهِ كما تدرَّبت على تلك كما سبق القول

فاذا لم تفهم ما هي الاشتراكية الصحيحة كما اسميها ولم تفهم كذلك اهمية علاقتها بالعلوم الطبيعية بعد كل هذا البيان فالذنب ليس عليَّ بل الذنب حينئذٍ على تشبُّثك من مبادىء علومك النظرية القديمة التي تدرَّبت عليها حتى اليوم وهذه ان لم اكن قد تمكَّنت من اقناعك بفساد اساسها الذي اقيمت عليهِ نفسي ان اكون قد اقلقتك فيها والشك اول طريق الهدى

الشعر العصري وكيف ينبغي أن يكون (١)

سادتي . ما احسن مجلسكم وما احقهُ بثناء يشاكلهُ في حسنهِ . ولكن هيهات . من اين اوتي لساني تلك الفصاحة . ومتى استطاع خاطري هذه الاجادة . غير اني لا ارضى لنفسي معذرة . لا بد من كلمة اقولها . اثني عليكم كما استطيع . لا كما ينبغي . فاقنعوا مني بالقليل . ان على آثارهِ كثيراً مما ستفيض بهِ قرائح اخواني الشعراء اذا تعاقبوا بعدي على هذا الموقف . تلك اغاني العصر الجديد . يحيي بها دولة الادب الجديدة . في هذه البلدة القديمة

تمنيت ان امتَّع بمثل هذه الساعة . ان عندي احاديث اعددتها لها . وتمنى هذا النادي الادبي متكلماً يقف وقفتي . فتوافقت الامنيتان وكان الفضل لكم في تحقيقهما . نتسابقوا معهُ الشكر . ولكم عندي المزيد

(١) خطبة محضرة ولي الدين بك يكن القيت في النادي الملوكي الادبي بالاسكندرية في ٢٨ نوفمبر الماضي

اما بعدُ . فان حديثي لكم اليوم هو في « الشعر العصري وكيف ينبغي ان يكون » هذا موضوع تحيرتهُ وانا خائف منهُ . انهُ لصعب المسالك . كثير الشعاب . اذا انطلقتُ بكم في مجاهلهِ اجهدتكم . ولكنني ادع صعبهُ واسلك بكم سهلهُ . فعسى ان تمنحوني صفحاً او تستطيعوا معي صبرا

سادتي . ان في مواضع الحس من الانفس لوّى كامنة . الحقيقة تكنها والخيال يهيجها . تظل في معترك الجدل والامر مشتدة ومتخاذلة . فاذا عراها طرب او ادركها حنين فاضت معاني على البدائهِ وتدفقت الفاظاً من الالسن . كذلك يلهم الشعر فان افرغ في الوزن ورُصّع بالقوافي كان نظماً . وان تآلف في الديباجة وطرز بالجمل كان بياناً

ما كل نظم شعراً ولا كل شعر نظماً . ولو كان النظم وحدهُ سبيلاً الى الشعر ما قصر عنهُ احد من الراغبين . بل ان في البيان شعراً لا تبلغ نبرات الاوزان مبلغهُ من الانفس ولا يقع رنين القوافي وقعهُ من الاذان . وخير من كليهما ترجيع القاري بالاسحار . وهيئة النائم بالاصائل . وحفيف الاشجار بين الرياض . وخرير المياه في القدران . وانتظام الاندماء في سلوك الاشعة . وتلاعب الفراش على مجامع الازهار . كل ذلك شعر لا تعمُّد فيهِ ولا تكلُّف . وافصح منهُ زفير الساهد ودمعة المهجور . وانين الموجع . ودعوة المظلوم . فذلك اما صبابة نفس او ذوب فؤاد . ان قطرة الطل على ورقة الورد بيت يرى ولا يسمع . وان الثور السافط من العود اللدن بيت يكتب ثم يمحى . وفي حياة كل خافقة وموت كل ساكنة ديوان من الشعر . يستمد منهُ كل خاطر ويؤدّيهِ كل لسان

قال ابن اوس الطائي يصف احدى قصائدهِ :

حذيتُ حذاء الحضرمية ارهفت واجابها التحضير والتلسينُ
انسية وحشية كثرت بها حركات اهل الارض وهي سكونُ
يشوعها خضل وحلي قريضها حلي الهدى وتسيها موضون
اما المعاني فهي ابكار اذا نصت ولكنّ القوافي عون

فهذا وصف المتكلف غير المجيد . ولو كنت اجيد الشعر لحاولت ان اقول :

عصف الهوى بلواعج فأثارها هيهات يتلو ذا الحراك سكونُ
هذي صبابة انفس ام اعين ولقد تشابه انفس وعيون
ان الفؤاد يفيض عند حنينهِ شعراً فما كان القرار يكون

ولما نطق الاقدمون بالشعر نطقوا بهِ احسن منا . هم استخلصوا كلامهم من امالي

الانفس والاعين . فقال ملك ملوك الشعر امرؤ القيس في وصف جبل :

كأن ثبيراً في عرانين وبلهِ كبير اناس في بجادٍ مزمل

وقال قاضي الشعراء النابغة في وصف السلطان

فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المنتأى عنك واسعُ

وقال علقمة في مدح رجل اكرمهُ

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نار باليفاع تحرقُ

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

ولم في الحكاية ووصف الحال اشياء كثيرة كالمعلقات وكرائية ابن ابي ربيعة . ثم اخذ المخضرمون والمولدون يهذبون الشعر ويضيقون مسالكهُ حتى بات لا يتجاوز الخمسة ابواب وهي المديح والهجاء والرثاء والغزل والفخر . ثم اتت طائفة من ادعياء الشعر ادخلت فيهِ الصناعات اللفظية كالجناس والتورية وما لا يستحيل بالانعكاس والطي والنشر وغير ذلك حتى اصبح الشعر وقد ادرك عصرنا كالمخلاة . فيها صنوف من الحصى . كل يرصها على ذوقهِ ولا يقبل منهُ احد ما يكون خارجاً عن المخلاة . ولا يرضون عمن لا يرصُّ رصَّ سابقيهِ

دالت دولة الشعر العربي من منذ ثمانية اعصر . وآخر من عرفت من ملوك الشعر هو ابن المعتز . ولقد اتى بهذا الفن الذي سماهُ البديع اقسد بهِ شعر الناس فما افلح بعدهُ شاعر الى العصر الماضي . فطلع فيهِ المرحوم البارودي محمود سامي باشا . فاكرمهُ الله يوم المهمهُ ان يقول :

اسمع في اللبي دبيب المنى والمح الشبهة في خاطري

فوقف يومئذٍ الى جانب المعجزين من شعراء الدولة العباسية . ثم نشأ بعدهُ كثير من الناس واناهُ اكثرهم او كاد . ولان كان في ايامنا من قربت المسافة بينهم وبين ابي تمام والبحتري والمتنبي فليس في ايامنا من خلقوا شعراء لما الاَّ التليل

يقول لامارتين : ايتها الليالي . اطوي سجل الافق في سكون

ايتها الكواكب تهادي متراقصة في سبلك المتجانسة

ضمي جناحيك

ايتها الارض خففي من اصدائك

وانصتي لامواجك على الرمال

ايها البحر هز صور الاله

الذي يحك الامواج

وقفنا اناس قبضوا على حبال العيس لا يدعونها · ووقفوا على اطلال لم يروها يندبونها

وما زلت طرباً حين سمعت شوقي بك يقول في وصف عبده الحمولي

يسمع الليل منهُ في الصبح ياليـ ـل فيصغي مستهلاً في قراره

وقولهُ وقد اوجز قصة كل عاشق في بيت واحد

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقـاء

ثم شاء ان يسلك سبيلاً جديدة فقال

صوني جمالك عنا انـا بشر من التراب وهذا الحسن روحاني

او فابتغي فلكاً تأوينهُ ملكا لم يتخذ شركاً في العالم الفاني

فما انتهى الأ وقد ادركهُ الاعياء ووقف لا يتقدم خطوة بعد ذلك

سادتي · اصف لكم حبيبة الشعراء عندنا · اذن فاسمعوا :

رمح هو القد ورمانتان هما النهدان ومرآة في الصدر وابريق هو العنق وفوق هذا التركيب العجيب وردتان تكونان وجنتين وعقربان يصيران صدغين وحق من العاج يصبح فماً · اما العينان نسهمان واما الحاجبان قوسان يقوم بينهما سيف هو الانف ثم يتراكب الشعر فيكون اعلاهُ عناقيد كرم ويكون اسفلهُ حية · فمن كان يثبت على لقاء هذه الحبيبة المخوفة فاني افزع منها الى الله

على ان في ايامنا شاعرين عمدا احدثا الشعر عهداً جديداً · اريد صديقي خليل مطران واحمد محرم · اما خليل فمعانيهِ احسن من الفاظهِ واما محرم فالفاظهُ اجمل من معانيهِ · قال هذان الشاعران في فنون كثيرة ولم يقتصرا على تكلُّف المديح · وما اراهما شيئاً الأ احسناهُ يقول خليل في احدى مراثيهِ

مات كنضر الفروع يلزمها بعد الردى حسنها الى ابدِ

في جاد اوراقهِ وبين حلى ازهارهِ من مبشر ونـدبـه

في عز ملك الصبى وحاشيـة من غر آمالهِ بلا عددِ

في منتهى مجدهِ وصولتهِ اذ يقتل السعد لاهياً ويدي

ويصدم المكر غير ملتفت ويقهم الدهر غـير مرتعدِ

ويترك اللوم حائراً وجلاً متقداً في لسانـهِ متقدِ

يا راحلاً في الغداة عن نعم تثرى وعن بسطة وعن رغدِ

وتاركاً رسمهُ لفاقدهِ مصوراً بالجراح سيفُ الخلدِ
لا انكرت روحك التي امنت ما فارقت من مخاوف الجسدِ

ولهُ مثل هذا مرتجلاً :

آهٍ من نار الجوى فهي التي تفجر البركان من قلب رقيق
آهٍ من صدع الثرى فهو الذي يرسل الاحزان كالسيل الدفوق
ان تذيبوا هكذا اكبادنا يا بنينا فالردى انسى العقوق

وقصيدة خليل في وصف بعلبك تبقى معجزة خالدة وهي اشهر من ان تشهر . ويقول محرم في وصف الخزان

ارى الهرمين قد هرما وشاخا وانت من الصبا في عنفوانِ
فناجيهما ولو قدرا لطفا اليك تقبلا يتباريانِ
وانك لو تسومهما سجوداً لخرا يسجدان ويضرعانِ
علىّ الجد يعجب صامتيهِ وليس عليّ وصف المهرجانِ

ومن معجزات محرم قولهُ في بر الوالدين

ناجياني . ناجياني انتما لا النيرانِ
اشرقا في كل افق واطلعا في كل آنِ
ان هذا النور عهد بين نفسي والامانِ
انهُ ابهى المرائي انهُ اشهى الاماني
يا اميريّ ابينا ما الذي تبتغيانِ
انا للامر مطيع فانظرا ما تأمرانِ
أتريدان حياتي فهي ما اوليتماني
من انا لو لم تكونا انتما انشأتماني
انتما مبدأ امريه انتما مرجع شانيهِ
ليس في الدنيا جزاء للذي اسديتماني

وديوان محرم كالروض في احسن ايام الربيع . تنزه عما في دواوين الشعراء من قولهم وقال يمدح فلاناً وقال يهجو فلاناً . وازدان بكل عنوان جديد . كالخزان والدين والفضيلة والاخلاق والآداب وحنو الجاهل وشهيدة العفاف واباء العذارى وسارقة الطفل . وغير ذلك

هذان اقدر الشعراء على خلق المعاني واكثرهم فنوناً واجردهم قريحة . وهما مع فضلها لم يهبا العصر العشرين شيئاً من مبتداهُ . ولو شئت لذكرت لكم بعض ما قالهُ شاعر صغير القدر . لافضل لهُ الاَّ حيكم . ولكني ادعهُ في عجزهِ ولا اطيل ملالكم اليوم

سادتي . ان لغة الضاد في يومها كما كانت من منذ خمسة عشر عصراً . شعراؤها يكررون ما قالهُ اسلافهم ولا يحسنون التكرار . ولقد يجد الشاعر الف كلمة لشيء واحد مما سقط من الاستخدام كازمخ والدرع ولا يجد كلمة واحدة لشيء لا يزايل بصرهُ . فمن منا يقدر ان يسمي ما بهذا المكان من الاثاث . كل ما نراهُ باعيننا نعرفهُ ولا نعرف لهُ اسماً . لا بد من وضع كلمات يقع عليها الاختيار وتؤدى بها المعاني الجديدة . ثم لا بد من اختيار اشياء غير هذه التي ابتذلها التكرار

غرقت التيتانك وما رثاها شاعر فيما علمت . ولو كان لها راشر فهو قائل مثل غيره . درر عادت الى البحر . وينبغي ان تلبس المعاني ثياب الجداد . والكون مظلم . والدموع كالمطر . وماشاعر يتارك خناق هذه المعاني المسكينة وهي تستغيث وتطلب ان تعتق رقابها

اجل ان من مصاعب الشعراء في عصرنا الجديد انهم مقيدون باستعارات وتشابيه ورثوها عن السلف فمن خرج عنها خرج عن الفصاحة . ولذا كان افصح شعرائنا اكثرهم حفظاً للشعر القديم . ولا ادري كيف يتجمل المرء في ايامنا بثياب البداوة . وتأليف الكلام المطبوع اسهل تناولاً واحسن اثراً . ولو كانت القرائح غير مكدودة في التقليد ومرسلة في سبيل الاجتهاد لكان حظنا من الادب اكثر من حظ بني العرب . لأن لغة الضاد لغة شعر . يجد اهلها اهلُ سائر اللغات . وقوافي لغة الضاد واوزانها ووجوه الافادة فيها تستحدث اغاني تجتذب القلوب من بين الصدور . وليست للغة على وجه الارض مثل هذه الفضائل

سادتي . اذا عرفت الامة قدر المحسن . واعانتهُ على المزيد . حق لها ان تطالبهُ بآخر ما يستطيع . فاما وشعراؤكم عيال عليكم . فلا تطلبوا منهم اكثر مما عندهم . اذا تقدمت الامم بآثارها في الادب فما ان تفخر وعلينا ان نصفق . وربما نشأ في هذه الامة شاعر لا يقعد بهِ الجد عن بلوغ الغاية . فانتظروهُ معي . ارجو ان تعيشوا لايام السؤدد واذا لم اكن معكم فاني احييكم بشعري القديم من وراء استار الغيب